حصون وأبراج أندلسية
لا زالت محط إثارة ومتعة وثقافة

برج لودونس

Lodones Tower

مدريد – د. كاظم شمهود طاهر

كان المسلمون قد شيدوا ربايا أو أبراجا للمراقبة والإنذار المبكر على المرتفعات وقمم الجبال والهضاب وبين الممرات الجبلية، وكانت تقع في أماكن بحيث يرى بعضها البعض، وكان موقعها بين الحصون الكبيرة وعلى الطرق العامة. وقد نمت هذه الأبراج وظهر حولها بعض التجمعات السكنية والمدن الصغيرة. وكان من أشهر وأجمل هذه الأبراج تلك التي تقع قرب مدريد العاصمة. وقد أحصى المؤرخون الأسبان في الوقت الحاضر الأماكن الأثرية الإسلامية التي تحيط بمدريد بأنها 53 قرية و64 موقعا أثريا، كلها تشهد على طرازها الإسلامي. وأصبحت هذه الأماكن اليوم مناطق سياحية جميلة يرتادها الناس خاصة أهل مدريد كما أنشئ فيها عدد من المتاحف مثل متحف بيكاسو في مدينة "بويتراغو".

والمنطقة المحصورة بين نهر الخراما شرقا، والذي يقع شرق مدريد، ووادي الرمل غربا، معروفة بتنوع تضاريسها الطبيعية حيث تتكون من وديان وهضاب وأنهار وغابات وممرات جبلية وعرة، يضاف إلى ذلك وجود مناطق سهلة صالحة للزراعة والرعي وفيها مناظر خلابة ممتعة تسر الناظرين.

في هذه المنطقة شيّد المسلمون سلسلة من أبراج المراقبة والإنذار المبكر وذلك لمراقبة تحركات النصارى وخوفا من تسللهم عبر ممرات الجبال الشمالية إلى المدن الإسلامية، ولم يبق اليوم من هذه الأبراج سوى ستة أبراج تدعى "الطلائع"، وهي موزعة إلى قسمين أربعة منها تقع في حوض وادي الخاراما شرقا واثنان يقعان في وادي الرمل غربا.

والمجموعة الأولى تتكون من الأبراج التالية: البيون، وبينتورادو، والبرويسو، وبرج الرباطاكاباس، ويبدو أن الاسم عربي الأصل وربما يعني "رباط القبس". وهذه الأبراج أو الطلائع متجانسة ومتشابهة في عمارتها وهي تقع على مناطق مرتفعة بحيث يستطيع أحدها رؤية الآخر، والمسافة التي تفصل بينها حسب طبيعة الأرض وتضاريسها، وهي تتراوح بين خمسة وسبعة وعشرة كيلومترات أو أكثر، وتقترب أيضا من المدن والقرى. وهي أسطوانية الشكل ومبنية من الحجر ويصل قطر بعضها إلى 6.5 مترا تقريبا وارتفاعها يتراوح بين 12 و 13 مترا، أما قاعدتها فهي مملوئة بالحصى والتراب إلى ارتفاع 3 أمتارا. وقد زرت هذه الأبراج فوجدتها قد تمّ ترميمها وإصلاحها في وقت قريب جدا ما عدا برج بينتورادو الذي لازال على وضعه المتهدم والمهمل، وأعتقد إن عملية الترميم ستطاله قريبا ويستعيد عافيته وقامته القديمة.

وكان لكل برج حارسان أو ثلاثة بالإضافة إلى اثنين من الفرسان اللذين يقومان بمهام كثيرة كالبريد والدورية وغيرها من المهام العسكرية. وفي حالة الإنذار تشعل نار في أعلى البرج مع دخان كثيف يتصاعد، إذا كان ذلك في النهار أما في الليل فتستخدم نار مضيئة كمشاعل الزيت أو غيرها. والهدف من ذلك هو تنبيه وإعلام الأبراج الأخرى أو القرى المجاورة بوجود أعداء في المنطقة ولهذا يجب الحذر والاستعداد، وبالتالي ينتقل هذا الخبر وبسرعة من برج إلى آخر حتى يعم جميع المناطق الحدودية ويمكن أن يصل الخبر إلى جنوب الأندلس خلال ساعات.

وهذا الأسلوب والطريقة في الإنذار المبكر كانت موجودة قديما في المدن والقرى الواقعة على شواطئ البحار حيث كانت هناك أبراج أو ما يسمى بـ"الفنارات" كانت مهمتها إرشاد السفن والتنبيه على وجود خطر كسفن القراصنة مثلا.

وقد صدر كتاب سنة 1990 اسمه "أبراج سلسلة جبال مدريد" للمؤلفين الأسبانيين ماتيو وكاباليرو، عرضا فيه دراسة دقيقة وعلمية عن تاريخ وأصل هذه الحصون، وذكرا أنهما قاما بالتنقيب في برج الرباطاكاباس وأخذا مادة الفحم المتبقية من حرق الخشب وأجريا فحوصا عليها فوجدا أنها تعود إلى القرن العاشر الميلادي، كما أخذا قطعا من السيراميك عثرا عليها قرب البرج المذكور وفحصاها أيضا فتوصلا إلى أن هذه القطع والخشب المحروق هي من صنع المسلمين وأنها تعود إلى العصر الإسلامي، وأن الحراس ربما كانوا يستخدمون أواني من الخزف للأكل والشرب.

أما المجموعة الثانية من الأبراج فهي التي تقع في الجهة الغربية من وادي الرمل أي شمال غرب مدريد وهما برجا توريلودونس، الذي يقع على مرتفع يشرف على الطريق العام للسيارات والذي يربط مدريد باشتوريش شمالا، وبرج الطلائع دي كولادو، ويقع شمال البرج الأول، وهو الآن خراب وحطام ولم يظهر منه غير الأسس والأحجار المندثرة هنا وهناك، أما شكله وتخطيطه فهو يشبه برج توريلودونس من ناحية كونه أسطواني الشكل ومن ناحية وجود غرفة ملاصقة له مستطيلة الشكل، والاثنان مبنيان من الحجر.ويذكر السيدان ماتيو وكاباليرو، بأن البرجين يعودان إلى القرن العاشر وأنهما من عمل المسلمين، كما يذكر بأن دراسة ونشر الأخبار عن هذه الحصون بدأ في نهاية الثمانينات وهو أول تنقيب يحدث فيها من قبل علماء الآثار.

←

برج البرانه

Albarrana Tower

ويقع شمال برج البورويسو مدينة إسلامية قديمة تدعى بويتراغو وتعتبر من أجمل مدن محافظة مدريد وتقع على بعد 75 كم شمال العاصمة مدريد.
ومن آثارها الإسلامية الموجودة حاليا هي السور والباب الرئيسي للمدينة وبرج البرانة وبرج الكنيسة الذي لا زال يتمتع بأصله الإسلامي وكذلك جداول المياه التي كانت تستخدم لري المزارع. وكان العرب سباقين في تطبيق طريقة الري هذه في الزراعة والتي كان يجهلها النصارى يومذاك. ويوجد في هذه المدينة التاريخية متحف لأعمال بيكاسو وهي خطوة جيدة وناجحة من قبل بلدية المدينة وذلك لاثرائها ثقافيا وسياحيا. مما أكسب المنطقة جاذبية سياحية وأخذ الناس يفدون عليها بكثرة. خاصة أهل مدريد الذين يقضون فيها أيام العطل ونهاية الأسبوع.أما بالنسبة إلى الكنيسة فهي على طراز المدجنين (المسلمين) وتسمى سانتا مارية دل كاستيو. وتتكون من قاعة طويلة مبنية من الحجر ولها سقف من الخشب من طراز المدجنين حيث تظهر فيه زخارف إسلامية متنوعة. منها النجمة الهندسية المثمنة وهي كبيرة الحجم وتتكرر على طول السقف. ويذكر بأن الكنيسة كانت مسجدا ثم حولت إلى كنيسة. أما البرج فلا زال على طرازه الإسلامي وهو مربع الشكل وله ثلاثة طوابق من الشبابيك ذات تاثيرات دمشقية وطليطلية. وهو مبني من الآجر والحجرويوجد إلى جانب القاعة الكبيرة للكنيسة قاعة أخرى موازية لها. وفي هذه القاعة نشاهد الطراز الإسلامي بكل تفاصيله. ويظهر السقف الخشبي المزخرف والملون وفيه 43 نجمة مثمنة الشكل في داخلها اسم الجلالة (الله) مخطوط بالخط الكوفي وملون باللون الأحمر على خلفية شذرية جميلة.وقد اندهشت لهذا الأثر الجميل ووجود كلمة الله في السقف وعلى الجدران خاصة المحراب بالإضافة إلى الزخارف المتنوعة والجميلة الأخرى والتي لم تتغير أو تمسح من مكانها. وبقيت كلمة الله حية متأججة في نفوس المؤمنين سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين إلى يومنا هذا. ■

الكاتب عند أحد الأبراج

The writer at one of the towers

كنيسة بويتراغو

The Church of Buitrago